فرنسيس بيكن

لألفرد فيبر

الأستاذ عبد الكريم الناصري

في انجلترا[1] يتلقى الإصلاح الفلسفي طابع الخلق الانجلوسكسوني، ويتخذ وجهة تختلف كل الاختلاف عن وجهة الحركة الإيطالية. فالعقل الإنجليزي الوضعي الرصين عديم الثقة بتقاليد الفلسفة المدرسية، وبما تصل إليه الميتافيزيقا المستقلة من نتائج متسرعة. وهو يؤثر التصعيد المتدرج البطيء في طريق التجربة على النظر الإيطالي الذي يبلغ القمة بسرعة، ثم لا يلبث حتى يهن عزمه، ويفقد توازنه، فيهوي في حضيض الشك. ثم إن هذا العقل متوقف عند حقيقة واقعة، وهي أن المدرسيين لم يساهموا قط في تقدم العلوم، وأن هذه الفتوحات الفكرية إنما تحققت خارج المدرسة، بل على الرغم منها.

أجل، فإن العلوم مدينة بنجاحها لا إلى أرسطو ولا إلى أي مرجع تقليدي سواه، بل إلى التأمل المباشر في الطبيعة، والتأثير المباشر للواقع، والفهم الواقعي المشترك. صحيح أن بحاث العلم الجريئين لم يكونوا أقل مهارة في القياس والاستدلال من مناطقة المدرسة، بيد أن استدلالهم يقوم على ملاحظة الواقع.

وكانوا — من جهة أخرى — إذا بدأوا من فرض أو تصور قبلي، تحققوا منه بالتجربة، كما فعل كولومبس، ولم يعترفوا بصدقه حتى يظفر بهذا « التصديق » الذي لا مفر منه.

وهكذا نجدنا، من جهة، حيال فلسفة رسمية عاجزة عقيمة، ومن جهة أخرى حيال تقدم مدهش في العلوم. وكان الاستنتاج الذي فرض نفسه على العقلية الإنجليزية العملية، هو وجوب ترك التأمل القبلي والقياس المساء استعماله، والأخذ بالملاحظة والاستقراء.

وهذا الموقف الذي أعرب عنه روجر بيكن في القرن الثالث عشر

(١) انظر الفقرة الأخيرة من مقالة (توماسو كمبانلا) المنشور في العدد (٦٤٦).

إصلاح يسير فيها، فقد ثبت أنها أنفع وأجدى، دنيا وأخرى، وأن تلك الثورة عليها حتى تم العدول عنها، والقضاء على الجامعة الأزهرية، كان فيها إغراق أدركناه الآن. وأنا أعرف الأزهر الجديد وأعرف كليات ثلاثاً أنشئت على غراره في دمشق وبغداد وبيروت علّمت فيها كلها، وأشهد لله شهادة حق أن الأزهر القديم كان في الجملة خيراً منها، إذ كان أهله يطلبون العلم لله وللعلم فصار أهلها يطلبونه للشهادات والوظائف، وكانوا يصبرون على تلك الحواشي المطولات وإن تكن عقيمات، فصار هؤلاء لا يقرأون إلا خلاصات يجوزون بها الامتحانات. وكانوا علماء عاملين لدينهم أهل تقى وورع في سمتهم وسلوكهم، وسرهم وعلنهم، فصار بعض المدرسين وأكثر التلاميذ ... صاروا على حال من عرفها فقد عرفها ومن جهلها فلا يسأل عن الخبر.

وأنا لا أعمم ولا أطلق القول، وإنما أعني الكثرة ممن أعرف، ولعل فيمن لم أتشرف بمعرفته خيراً لم يصل إليّ علمه ولا بلغني خبره — هذا على أن تكون المدارس الدينية بمثابة مدارس الاختصاص لا يدخلها الطالب إلا بعد أن يدرس هذه الدراسة الثانوية ويفهم علومها ويأخذ شهادتها؛ لأنها ثقافة عامة يحتاج إليها عالم الدين وعالم الدنيا والموظف وصاحب العمل الحرّ.

* * *

ولا بأس بعدُ بارتياد مناهل العلم في غير بلادنا، على أن يطلب فيها العلم المبني على المشاهدة. أما علوم الرواية وما أصوله عندنا، كعلوم العربية فلا، وهذه الحماقة التي كان أباها الفرنسيون إذ أرسلوا شبابنا يتعلمون العربية في باريس لا يجوز أن تعاد، وحسبنا أن صلينا نحن نارها، وتجرعنا صابّها، (ولا نزال نتجرعه ...) وأن أضحكنا الناس علينا، وزدنا طلابنا على ضعفهم في لغتنا ضعفاً.

* * *

هذه كلمة صغيرة في موضوع كبير، أعرف أنها تثير مناقشات وتحتمل جدالا، وأنها لم تلم بأطراف الموضوع ولم تستوف البحث فيه وإنما هي تنبيه إلى فساد، ودعوة إلى إصلاح، أهديتها إلى إمام المربين ساطع بك الحصري، لأنه مرجع هذا الفن أولا، ومرجع كل أمر في وزارة معارف الشام ثانياً.

دمشق (المحكمة الشرعية) علي الطنطاوي

هو الذى أعلنه من جديد وبشر به ودعا إليه سميه فرنسيس بيكن Bacon بارون فيرولام[1] (١٥٦١ — ١٦٢٦) فى مؤلفاته المختلفة : « شرف العلم وتقدمه » و « آلة العلوم الجديدة » وسواهما .

والمشكلة هنا هى أن نبدأ مسعى العقل كله من جديد — أن نبنى العلم على أساس جديد كل الجدة Instauratim magna . فإننا إذا رمنا التيقن من طبيعة الأشياء الخفية ، فيجب ألا ننشدها فى الصحائف والكتب ، ولا فى ثقات المدرسة ، ولا فى التصورات السابقة والأنظار القبلية . ويجب قبل كل شىء أن نقلع عن تقليد الأقدمين الذين عاق نفوذهم تقدم المعرفة . فقد كان فلاسفة اليونان — باستثناء ديمقريطس وبضعة وضعيين — قلما يلاحظون ، وإذا لاحظوا لم يبعدوا عن السطح . وقد حذا المدرسيون حذو الأوائل فضربوا بالواقع عرض الحائط ، حتى ليخيل إليك أنهم فقدوا الشعور به .

هذا ، إلى أن معارفنا مليئة بسوابق الأحكام Prejudices ، فإن لنا أوهامنا وأهواءنا و « أصنامنا » — أصنام الجنس ، والكهف ، والسوق ، والمسرح — التى نفرضها على الطبيعة ، والطبيعة منها براء . فبما أن الدائرة خط منتظم يعجبنا انتظامه ، ترانا نستنتج أن أفلاك الكواكب دوائر كاملة . إنا لا نلاحظ أبداً ، أو لا نلاحظ إلا أسوأ الملاحظة ، فإذا نجا قوم من كارثة خمس مرات ، استدللنا من ذلك على أن قوى غيبية قد تدخلت فى الأمر ، ولم نحسب حساباً لخمس حالات أخرى لم ينج فيها قوم آخرون ، فحليق بنا أن نقول كما قال ذلك الحكيم الذى أروه فى بعض المعابد ألواح نذور علقها ناس نجوا من الغرق : « ولكن أين صور الذين هلكوا من بعد ما نذروا ؟ » . إنا نفترض عللا غائية ، ونفرضها على العلم ، ونحمل بذلك إلى الطبيعة ما ليس يوجد إلا فى الخيال .

إنا بدلا من أن نتفهم « الأشياء » نتنازع على « الألفاظ » ، التى يفسرها كل امرئ كما يهوى . إنا على الدوام نخلط بين موضوعات العلم وموضوعات الدين ، فلا نظفر إلا بفلسفة مشوبة بالخرافة ، ولاهوت مشوب بالمرطقة : « إن الفلسفة الطبيعية لم تلف بعد خالصة غير مغشوشة ؛ وإنما هى فاسدة مشوبة بالمنطق فى مدرسة أرسطو ، وباللاهوت الطبيعى فى مدرسة أفلاطون ، وبالرياضيات فى مدرسة أفلاطون الثانية — مدرسة أرقلس وأصحابه — مع أن شأن الرياضيات أن تحدد الفلسفة الطبيعية ، لا أن تولدها أو تنشئها » .

ورجاء الفلسفة الوحيد فى هذه الفوضى من الآراء ، ومن الأنظمة القبلية يستقر فى الخروج على التقاليد اليونانية والمدرسية ، وفى تقبل المنهج الاستقرائى . إن ما تدعوه الفلسفة التقليدية « استقراء » يسير بالتعداد البسيط ويؤدى إلى نتائج غير يقينية ، وهو معرض للخطر يأتيه من مثال واحد يناقض تلك النتائج ، لأنه يبت فيها استناداً إلى عدد قليل غير كاف من الوقائع . أما الاستقراء الصحيح ، منهج العلم الحديث ، فإنه لا يسرع من بضع ظواهر متفرقة غير محققة إلى أعم البديهيات ، بل يدرس الوقائع والجزئيات فى عناية وصبر ، ويرتقى إلى القوانين بالتدريج وبغير توقف . وينبغى لنا عند وضع القانون من القوانين العامة : « أن نفحص وننظر أنه هل صيغ وفصل بحيث يتسع للأمثلة الجزئية التى استنبط منها فحسب ، أم هل هو أوسع وأعم ؟ فإن كانت الثانية ، فينبغى أن نلاحظ أنه هل يؤيد سمته وعموميته ، ويضمن لنا ذلك ، بأن يشير إلى جزئيات جديدة ؛ فلا نقف عند معروفاتنا السابقة ، أو نقبض على ظلال وأشكال مجردة .

* * *

من الغلو فى تقدير بيكن أن نعتبره خالق المنهج الإختبارى Experimemtal والعلم الحديث ؛ بل عكس ذلك هو الصحيح ، فقد كان بيكن نتاجاً للاحياء العلمى فى القرن السادس عشر ، وليست دعوته إلا النتيجة ، أو قل المنزى الذى استنبطه العقل الانجليزى من الحركة العلمية . ولكن إذا لم يجز لنا أن نعده منشئا لمنهج التجريب والاختبار ، فلا أقل من أن نرد إليه فضل انتشال هذا المنهج من الحضيض الذى ألقاه فيه تحامل المدرسيين وإعطائه كيانا قانونياً ، إن صح هذا التعبير ، بأبلغ دفاع قيل فيه

(١) كان بيكن فى أول أمره محامياً ، ولكنه استطاع أن يصل — بسلسلة من المكائد والأساليب الدنيئة — إلى منصب « اللورد تشانسلر » الرفيع (رئيس قضاة إنجلترا ، وأيضاً رئيس مجلس اللوردين) . وقد عزل من منصبه بعد ثلاث سنوات بتهمة الارتشاء (المعرب) .

فليس بالأمر اليسير أن نجهر بما يفكر فيه الكثيرون ، ولا يجرؤ أحد على أن يعترف به حتى لنفسه .

بل وأكثر من ذلك . فإن « العلم » الاختبارى وطرائقه وإن كانت أنشئت قبل عهد بيكن بزمن طويل ، فإنه مع ذلك مؤسس « الفلسفة » الاختبارية ، وأبو الفلسفة الوضعية الحديثة ، من حيث أنه أول من أثبت[1] ، بأفصح القول وأبلغه ، أن الفلسفة الحق والعلم الحق مشتركا المصالح ، وأن الميتافيزيقا المستقلة عبث لا طائل وراءه . إنه ، وهو العدو المجاهر بعداوته للروح « الميتافيزيقية » ، ليرجو قراءه بصراحة : « ألا يحسبوا أنا نطمع فى إنشاء فرقة فلسفية ، كاليونان القدامى أو بعض المحدثين ، فما نقصد إلى ذلك ، وليس من رأينا ، بعد ، أن الآراء المخصوصة المجردة فى الطبيعة ومبادىء الأشياء ذات أهمية تذكر فى حظوظ الناس » . ومن هنا فهو لا يعارض أرسطو فقط ، بل « كل رأى مجرد فى الطبيعة » ، أى كل مذهب ميتافيزيقى لا يقوم على العلم .

وأيضا فإنه يميز بين « الفلسفة الأولى » و « الميتافيزيقا » . فالفلسفة الأولى تعالج التصورات والقضايا العامة المشتركة بين العلوم الخاصة ، وهى (بحسب قسمة بيكن الغريبة « المشتقة من قوى النفس الثلاث » : الذاكرة والخيال والعقل) ثلاثة علوم رئيسية : (التاريخ) الذى ينتظم التاريخ المدنى والتاريخ الطبيعى ، و (الشعر) و (الفلسفة) التى تنقسم عنده إلى اللاهوت الطبيعى والفلسفة الطبيعية ، والفلسفة الانسانية . أما « الميتافيزيقا » ؛ فهى القسم النظرى من الفلسفة الطبيعية ، وهى تنظر فى الصور (بالمعنى المدرسى) والعلل الغائية ؛ بينما القسم العملى من الفلسفة الطبيعية — وهو « الفيزياء » بالمعنى اللائق — ينظر فى الجواهر والعلل الفاعلية . على أن بيكن لا يعطى « الميتافيزيقا » كبير قيمة ؛ ويبدو كأنه يتهكم حين يسمى العلل الغائية « عذارى عواقر » ، ثم يخص بها هذه الصناعة . أما اللاهوت الطبيعى فهدفه الوحيد « تفنيد الالحاد » : فان العقائد موضوعات للايمان دون المعرفة .

(١) أى قرر ، وليس بمعنى « برهن » (المعرب)

إن هذا الأسلوب ، أسلوب التمييز بين العلم واللاهوت ، وبين الفلسفة والدين ، وبين العقل والوحى ؛ يضاد أساليب المدرسة على خط مستقيم . لقد وحدت المدرسية الواقعية القديمة بين الفلسفة واللاهوت . أما بيكن فإنه كالإسميين ، يطلب فصلهما إلى أقصى حد ممكن . وهو يبرر كونه طبيعياً فى العلم وغيبياً فى اللاهوت على أساس هذا التمييز المطلق . وقد حذا حذوه فى ذلك عدد من مفكرى الانجليز .

بيد أن المسافة ليست كبيرة بين إقصاء المغيب عن ميدان العلم ، وبين إنكاره وإبطاله : فإن توماس هوبز — من أصدقاء بيكن — يقول بضرب من المادية لا تكاد (محافظته) السياسية تفلح فى تغطيته وإخفائه .

(بغداد) عبد الكريم الناصرى

تصويب : ورد فى مقالة (كيانلا) المنشورة فى العدد ٦٤٦ (التعليق رقم ٣ ص ١٢٦٣) اسم كتاب من كتب الفيلسوف هيوم على أنه « مقال فى الطبيعة الانسانية » ، والصواب « رسالة فى الطبيعة الانسانية » .

صدر اليوم :

شجرة الحكم

لتوفيق الحكيم

يطلب من الناشر

مكتبة الآداب

بالجماميز بمصر

تليفون ٤٢٧٧٧

ثمنه ٢٥ قرشاً عدا البريد